وسام جمال البلاط

غالية بنت أمي

استيقظت ذات ليلة على أمر لم أرَ مثله قط طوال إحدى وثلاثين سنة، كنت وقتها في السابعة والعشرين من عمري وكنت لا أزال متزوجا حديثا لم يفت سوى شهرين ونصف على زواجي، سمعت صوت الهاتف الخاص بي الذي تركته فوق المنضدة في غرفة الجلوس ليلة أمس، بعد عناء يوم شاق من أيام العمل التي لا تنتهي أبدا، خاصة في بلادنا، فالعمل في بلادنا لا ينتهي حتى بعد انتهاء وقته، خاصة وإن كنت تعمل في مجال المبيعات، فربما يرن هاتفك في أي وقت ليطلب منك أحد العملاء طلبية ما.

رن الهاتف فاستيقظت مغلق العينين أحاول جاهدا أن أعي أنه يتوجب عليّ التوجه إلى غرفة الجلوس للرد على ذلك الهاتف اللعين. . . بعد محاولات للإفاقة مع استمرار الهاتف في إصدار تلك الرنة البغيضة التي لا تكف ولا يكف المتصل عن مواصلة محاولاته. . . توجهت متأففا إليه، لأجد اسم أمي يظهر جليا على شاشة الهاتف، انخلع قلبي من مكانه. . . ماذا تريد أمي في هذا الوقت المتأخر من الليل، كان الوقت يشير للثانية بعد منتصف الليل، هممت بالرد لكن لم أستطع لانتهاء مدة محاولة المتصل، مسرعا حاولت الاتصال بأمي وقلبي لربما تسمع جدران الغرفة نبضاته جيدا وعقلي لا يكف عن سرد آلاف بل ملايين الاحتمالات التي يمكن أن تكون. . . أهو أبي قد حدث له مكروه أم أختي أم إنه أخي الأصغر الذي لا يكف دوما عن افتعال الأزمات كونه الابن المدلل لدى والدي أم إنه أحد الأقارب قد وقع في أزمة ما أم توفي جدي الذي يرقد منذ فترة على فراش الموت. . .

مرت دقيقة كألف. . . ردت أمي بعدها تبكي وتنتحب، لا أفهم منها غير أن أختي لديها غدا امتحان اللغة العربية في السنة الثانية من المرحلة الثانوية.

المرحلة الثانوية! كيف!! أي امتحان وأي مرحلة!! عمَّ تتحدث أمي. أختي الآن في السنة الأولى من كلية التربية. أمي تهذي أم هذا مجرد حلم لا أكثر، تركت الهاتف لبرهة لا أعرف ماذا يحدث، لا أستوعب ما قالته أمي، أفقت على صوت نحيب أمي تذكرت أنها لا تزال على الهاتف، التقطت الهاتف مرة أخرى، طلبت من أمي أن تهدأ وتشرح لي على مهل ماذا يجري لأني لا أستوعب أي شيء. استأذنت منها بدقيقتين أغسل بهم وجهي. فعلت ثم عدت لأمي التي لازالت على الجهة الأخرى من الهاتف، سألتها ماذا هناك، وما علاقة أختي بالمرحلة الثانوية مرة أخرى، طلبت منها أن تهدأ أولا. .

انتظرت أختي ذات يوم خروج أبي صباحا إلى عمله حيث إنه يعمل مهندسا في إحدى شركات الإنشاءات الكبري، انتظرت إلى أن خرج. . لتدخل على أمي غرفتها لتخبرها أنها عزمت أمرها على إعادة الثانوية العامة مرة أخرى، فزعت أمي مما سمعت كأن مستها الكهرباء، فانفجرت كالبركان في وجه أختي، ألا يكفيكي ما حدث. . . وذلك المجموع الذي لا يليق بك أبدا، أتريدين نبش النيران مرة أخرى، يكفي ما حدث، لو علم أبوكِ ما يدور في رأسك لكسر بها جدران المنزل، انسي هذا القرار. . لا لن أخبر أبي. . وأنتِ كذلك لن تخبريه، كانت تتحدث بصوت ثابت لا يشوبه أي قلق على الإطلاق واثقة مما تقول وكأنما متخذة القرار بدون أي تراجع أو تهاون فيه، حاولت أمي أن تتمالك أعصابها، وأن تحدثها بعقلانية أكثر وأنه من غير المعقول أن تضيع ثلاث سنوات من عمرها في شيء لا أحد يعرف نهايته غير الله، عصفور في اليد خير من ألف على الشجرة يا بنيتي، فلتحمدي الله على ما في يدك ولتجتهدي فيه، ولا يعلم أحد قد تكونين ما تتمنين في هذه الكلية. . حتى وإن أنا وافقتك على ما تقولين، فمن أين لنا أن نجرؤ على إخبار أبيكِ

بهذا، أنتِ تعلمين أنه لو سمع ما تقولين فسيطير عقله من مكانه ولا يعرف أحد ما قد يصيبه، وما قد يفعله، فلتعدلي يا حبيبتي عمّا تفكري به. . .
التمعت عيني غالية وتزاحمت العبرات في مقلتيها تريد أن تجد الطريق للعبور بعيدا، احتضنتها أمها كإذن لها أن تبكي كما تشاء في حضنها، انتحبت كثيرا ظلت تبكي حتى اكتفت. . . أمي أنا لا أجد نفسي هنا أنا واثقة من أنني أستطيع فعلها، أقسم لكِ أني ظلمت في المرحلة الثانوية، ورغم ذلك صبرت لكني لا أستطيع الاستمرار أكثر من ذلك في حياة لا أريدها. . أنا أثق بكِ وأعلم أنكِ لن تتخلي عني أبدا، دعوت الله كثيرا أن يلهمني الخير وها أنا أشعر بالخير في ما أريده، أريد منكِ فقط أن تؤمني بي لا أريد أكثر من ذلك لا أريد سوى ذلك يا أمي، ثقي بي وكوني لي ظهرا أحتمي به وكتفا أستند عليه إذا أحسست أني أميل، وأبي. . لا تخبريه الآن وليبقى الأمر سرا بيننا. . . حتى محمود لا تخبريه الآن، لا أتوقع أنه سيوافق على هذا.
امتقع وجه أمي لا تعرف ماذا تفعل، أتلبي لها ما تريد وتكون بجانبها وليعينهم الله على تلك الخطوة غير المدروسة جيدا، وحتى وإن كانت مدروسة فنحن في بلد لا نعرف فيها ماذا يخبئ لنا الغد، كل يوم هناك قرار جديد لا أحد يعلم عنه شيئا، أم ترفض وتريح عقلها من كل هذه الأعباء التي لا تقدر وحدها على حملها، خاصة وأن أبي لو علم ستكون طامة كبري، أتذكر حزنه الشديد بعد ظهور نتيجة المرحلة الثانوية، وقتها لم يجرؤ أحد منا على محادثته ولا حتى استطاع أحد النظر في وجهه من شدة الغضب الذي كان يسيطر عليه، ظل في غرفته لا يفارقها أبدا إلا عندما يخرج للصلاة، غالية ذات معزة خاصة لدى أبي، لا أحد ينكر ذلك ولا أحد يتأفف من هذا، هي ذات معزة خاصة لدينا جميعا، وكانت ثقتنا فيها وخاصة أبي تفوق

كل الحدود لذلك عندما أتى مجموع الثانوية العامة مخيبا للآمال، ظل أبي منعزلا فترة من فرط الحزن الذي خيم عليه. . قررت أمي أن تستفتي قلبها وكما تقول دائما إذا أحسست بالتيه فاستفت قلبك فإنه لا يخطئ أبدا، فالقلب في عتمته يرى النور جليا، طلبت أمي منها مهلة لتتخذ قراراها ولتكن إلى آخر اليوم.

****

ظلت أمي طوال اليوم تفكر ولم يهدأ لها بال، تصلي وتدعو الله أن يلهمها الصواب، أتى أبي في المساء، لكنها كانت حريصة على إخفاء كل شيء حتى حيرتها، إلى أن طرقت غرفة ابنتها لتدخل عليها وقد عزمت أمرها، هل تعرفين أي الإجراءات سنتخذ أم سنسأل أولا، تهللت أسارير غالية وارتسمت دموع الفرحة على خديها، فاحتضنتها الأم. . ليس الآن. . . الفرحة لن تكتمل إلا بعدما ننجز كل شيء. . . لتنامي الآن وغدا يقدر الله ما يشاء.

لم تستطع غالية النوم في هذه الليلة ظلت مستيقظة حتى ساعات الفجر الأولى، قامت لتتوضأ وتصلي ركعتي قيام الليل، دعت الله كثيرا أن يلهمها الخير لم تدعُ بأكثر من هذا أن يرضى الله عنها ويرزقها الخير انتهت من صلاتها ثم ظلت تقرأ في كتاب الله المجيد إلى أن سمعت أذان الفجر يعلو من المسجد القريب أن الله أكبر من كل شيء فلا يعجزه شيء لا في الأرض ولا في السماء فاطمأن قلبها لذلك النداء إن الله اكبر من كل ما يشغل فكرها، فتحت البلكونة لتستمع إلى الأذان في حضرة نسائم هواء الفجر، دخلت تصلي بانتهاء الاذان، صلّت جيدا، وأطالت في السجود كأنها لا تعرف قياما، ظلت تدعو وتدعو، كانت تعلم ماذا ستفعل لكنها كانت قلقة من أن ترفض، لا تضمن أي شيء سوى وجود الله بجانبها ووجود أمها وهذا يكفي.

في السابعة والنصف صباحا وبعد نزول أبيها أيقظتها أنها التي لم تستطع النوم بدورها وظلت قلقة لما بعد الفجر فقد غفت ساعة لا أكثر. . قامت غالية يدب بها النشاط كأنها لا تريد النوم أبدا، جهزت نفسها ثم أخذت ما يلزمها من الأوراق، احتضنت أمها عند الباب وشكرتها دون كلمة شكر على ثقتها التي أودعتها إياها.

****

وصلا إلى مديرية التربية والتعليم التابعة لها. . . أنهوا جميع الأوراق التي تثبت حقها في التحسين على سنتين في المرحلة الثانوية، ثم ذهبوا إلى المدرسة التي ستقدم بها تلك الأوراق لكنها لم تكن مدرستها القديمة فهي لا تريدها لما قد تلقاه من مضايقات هناك، ومخافة أيضا أن يعلم والدها أو يوصل إليه أحد أيا كان تلك الاخبار، قدمت أوراقها في مدرسة أخرى بعيدة خارج نطاق سكنها بالكامل كي تظل بعيدة عن الأعين، في البداية قلق مدير المدرسة وظن أنها مفصولة من مدرستها وتريد أن تقدم هنا فكاد أن يرفض لولا تدخل الأم التي أكدت له أن الموضوع ليس هكذا وشرحت له الموقف بالكامل، فتعاطف معها وقبل أوراقها على الفور.

مرت السنة سريعا بين غالية الطالبة بكلية التربية الفرقة الأولى وغالية الطالبة بالسنة الثانية للمرحلة الثانوية، تذاكر هنا ما يكفيها للنجاح وتذاكر هنا بكل ما أوتيت من قوة كي تحقق أعلى الدرجات ولا تخيب ثقة أمها أبدا.

لم تستطع أمي أن تظل كاتمة ذلك الحمل دون إخبار أحد فاضطرت لإخباري ليلة أول امتحان، حاولت قدر الإمكان تهدئة أمي وأن بإمكاني أخبار والدي لكنها أصرت على عدم إخباره الآن، طمأنتها قدر استطاعتي وأخبرتها بأنني

سوف أحضر مع غالية جميع امتحاناتها فلا تقلق، ولتدعو الله أن ينهيها على خير.

. دخلت امتحان السنة الثانية من الثانوية العامة فيما اضطرت لتأجيل بعض المواد في الكلية لتضارب مواعيد الامتحانات هنا وهناك، لكن ما صبرها تلك الدرجات العالية التي أتت بها ف امتحانات الثانوية، لكن تلك السنة لا تحتسب لأن الشهادة تحتسب على السنة الأخيرة لا أكثر، لكن وحتى إن كانت فإنها تعتبر دفعة معنوية لغالية، وخطوة تثبت لنا أن الخير قادم لا محالة وتطمئن قلب أمي نوعا ما

بالنسبة لي لم أكن على قدر عال من الثقة بغالية بل إن ثقتي بما تفعله كانت مهزوزة جدا، لكن كنت أفعل لكي أطمئن أمي وأشجع غالية حتى وإن لم أثق بها بقدر كاف، فلو طلبت منك المساعدة فساعد حتى ولو بالكلام حتى وإن لم يعجبك ذلك الفعل أو لم تثق في فاعله تمام الثقة، من المهم أن يشعر بمن يشجعه. . . أما أمي فلم أرَ مثل إيمانها أبدا، كانت في بادئ الأمر أحيانا تخبرني بخوفها بألا تكون غالية بقدر كل هذه الثقة لكن يوما بعد الآخر كانت تؤمن بها أكثر وأكثر إلى أن جاءت النتيجة ومنذ ذلك اليوم وهي تثق بها تمام الثقة، كانت تمشي وراء أي شيء تقوله غالية مهما كان، أودعتها ثقتها فلم تعد تخاف مغبة أي شيء قد يحدث، إيمان رهيب ألهمها الله إياه، فأودعه في قلبها إيمانا راسخا لا يتزعزع ولا يتحرك مثقال ذرة. . . إلى أن جاء يوم لم يعد له جيدا، قرار لم يخطر على بال أي منا، صدمت غالية لكن لم يتحرك جفن أمي، كأن القرار لا يخص غالية أبدا. . . أقرت الوزارة بأنه لا يحق لأي طالب حاصل على الثانوية العامة أن يعيد تحسينها مرة أخرى، من المفترض أن هذا القرار لا يسري على غالية لأنها قد أتمت سنة

مسبقة وهذا القرار ينفذ على من يرغب من الطلاب الجدد الذين يريدون ذلك أما غالية فلا تفصلها سوى أشهر قليلة عن الامتحان. . كما حدثت مشكلة أخرى وهي أن الموقع الإلكتروني لا يستجيب ولا يوجد هناك رقم جلوس لها وذلك يعني أن القرار سيطبق عليها هي الأخرى، كادت غالية أن تجن، شت عقلها، لم تتوقف يوما عن البكاء. . . لكن أمي ثابتة كشجرة عتيقة لا تزعزعها أي رياح كانت أو عواصف، ثابتة هي مرتفعة الرأس تميل أغصانها مع الرياح لكنها لا تسقط أبدا، شجرة عتيقة ضربت جذورها في جوف الأرض فلم يعد هناك ما يرهبها أو يزعزع ثباتها، كانت تدعو الله وهي موقنة أن الله سيستجيب، لم تفكر يوما عكس ذلك كانت موقنة تمام اليقين أن الله لن يضيع تعبها وسهر ابنتها أبدا، الله عدل لا يظلم مثقال حبة من خردل، كانت لا تبكي أمامنا أبدا لكن كانت تتضرع في جوف الليل وتبتهل إلى الله أن يعينها على ذلك الحمل ويمنحها القوة على تجاوز هذه المحنة وأن يظللها برحماته ويرضى عما تفعل، فهي دائما تقول إن الرضا أصل كل شيء، إذا رضينا أرضانا الله وإذا أرضانا أعطانا كل شيء.

أخذت تجول هنا وهناك من مكان إلى آخر، حتى ذهبت إلى الوزارة نفسها وقدمت كثير من الشكاوى، لكن كانت دون جدوى. . الامتحانات تقترب ولا أحد يعرف مصير غالية إلى أين، لكن كانت هناك ثقة بأن الله لن يخذلها أبدا.

كنت اقول بيني وبين نفسي من المستحيل أن يأخذ أحد من حكومتنا ما يريد، التظلم يمكن أن يموت صاحبه ولم يتخذوا فيه أي قرار، لكن كنت أرى الإيمان في عيني أمي وعيني غالية يكذبني دوما، يفضح اهتزاز إيماني بأن الثقة بالله تفوق أي ترتيبات وأي قرارات وأي وزارات. . إلى أن جاء يوم

قررت فيه أمي أن ترفع دعوى على الوزارة نفسها، طبعا أبي كان خارج كل هذا ولو علم بما يحدث لمات بيننا دون كلمة واحدة، لكِ كل الفخر يا أمي على تحمل كل تلك المشقة، أمي ستشكو الحكومة إلى الحكومة، دعوت الله أن تكون العواقب وإن أتت فلتكن خفيفة علينا، حاولت أن أمنع أمي في بادئ الأمر وأن تكون غالية قد فعلت ما عليها لكن هذه إرادة الله، أخبرتني إن كانت غالية فعلت ما عليها فتبقى دورنا لنفعل ما علينا أيضا. . ولكنها الحكومة يا أمي. . ولو كان من، سأفعل أي شيء لتتمكن غالية من تحقيق ما تريد، الله مع الحق دائما ونحن على الحق. .

ذهبت أمي إلى أحد المحامين الذين لهم باع في ذلك التخصص، لم يهمها أي أموال، قالت إنه حتى وإن صرفت كل ما تدخره لما تراجعت لحظة واحدة، غالية كان يضعف إيمانها أحيانا وتريد أن تستسلم لكن الإصرار التي كانت تراه في عيون أمي يرهبها أن تتفوه بحرف واحد في وجه أمي عن الاستسلام، كانت أمي حازمة أمرها لا تراجع أبدا، إما النصر أو النصر، وكأنها معركتها الخاصة. . .

ظلت تحاول إلى أن جاء اليوم التي رجعت ومعها رقم الجلوس والفرحة تملأ جنبات وجهها، فرحت غالية كثيرا كاد أن يغشى عليها من فرط الفرحة، أما أنا فلم أكن أصدق أي شيء، هناك أشياء تحدث أحيانا فوق مستوى العقل، أشياء تلهمنا أن الله أكبر لا يعجزه ما يريد. . ألا يكون هناك أمل أن تدخل الامتحان ثم فجأة تختفي كل تلك الصعاب واحدة تلو الأخرى إلى أن يتهيأ كل شيء فهذا ليس لنا يد فيه إطلاقا.

****

كنت لا ازال في العمل عندما رن هاتفي. . . إنه أبي، طلب مني الحضور

إلى المنزل في أسرع وقت ممكن وصوته يملؤه الغضب، توقعت كل شيء إلا أننا قد كشفنا لا أدري غباء مني أم ماذا، على أي حال ذهبت إلى منزل أبي، فتحت الباب لأجد أبي جالسا على الكرسي بوجه شاحب تكسوه الحمرة الباهتة وفي يديه ورق هيئ لي أنه ورق الدعوى التي قد أقامتها أمي على الوزارة، من المؤكد أن اسم أبي يزين الدعوة لكونه أباها فكل شيء كان باسمه ليس باسم أمي، عرفت فيما بعد أن أخي الأصغر قد أعطاه إياه عندما وقع في يديه وهو يبحث عن كتبه التائهة وكأن كتبه لم يحلُ لها التيه إلا في غرفة غالية، على أي حال عثر على هذه الأوراق وقرأ ما فيها ولم يفهم أكثر من اسم أبي ولم يتوان بالطبع بأن يهديها إلى أبي فهي ضائعة منه، مادام يعلوها اسم أبي فهي تخص أبي، تبا له ولسذاجته.

أبلغني أبي بما أعرفه مسبقا، اندهشت كأني لم أعرف شيئا عن هذا من قبل، تبدلت ملامحي وأخبرته أن هذه الفعلة يجب أن يعاقب فاعلها، أتت أمي من الخارج هي وغالية، فنظر إلى غالية نظرة كادت أن تموت في مكانها من هولها، أخبر أمي بما تعرفه مسبقا لكن أمي فعلت كما فعلت، نظرت أنا وأمي إلى غالية وفي نفس واحد بصوت فيه من الحزم ما يكفي: ليه كدا يا غالية عملنالك إيه عشان تعملي كدا. . نظرت غالية الينا وكأنها تقول لنا -يا ولاد الكاااااالب-.

كان لابد أن تكون هناك ضحية هذه الليلة وبدون اتفاق مسبق بيني أنا وأمي قررنا أن تكون غالية، لو علم أبي أن أمي هي من فعلت لكانت الآن تسكن بيت جدي تنتظر نفقتها تأتيها كل شهر ونحن بين هنا وهناك، ولو أن أبي علم أني شريك في هذه الجريمة في نظره لكنت مطرود من جنته ليوم يأذن لي بالعودة ولا أحسبه قد يكون قريبا أبدا، لا أستطيع أن أحكي لكم كم كان مقدار ركض أبي خلف غالية في المنزل ليلتها. . هدأ أبي نوعا ما بعد

رضائه ورضائنا عما نالته غالية تلك الليلة

****

حسم أبي أمر كل ما يحدث بأن ليس هناك ما تحلم به غالية، وينهار المعبد على من أقامه، لا امتحانات ولا ثانوية ولا نقاش في ذلك، لم يستطع أحد منّا أن يتفوه بشيء، ظل الجميع في وجوم مطبق، لا أحد يتكلم لا أحد يأكل لا أحد ينظر إلى الآخر. . .

عدت إلى منزلي لأجد زوجتي لا زالت مستيقظة، قصصت عليها ما حدث، حاولت أن تطمئنني وأنه يجب أن نحدث أبي ونقنعه أن يحيد عما يريده فلم يعد على الامتحانات سوى وقت قصير، ولو لم تأتي غالية بمجموع عال فليفعل ما يريد. . .

ذهبت في اليوم التالي بعد انتهاء العمل إلى أبي بعدما فت أولا على زوجتي لأخذها معي، تناولنا الغداء سريعا ثم اجتمعنا أنا وأمي وزوجتي لمناقشة أبي في أمر غالية، كان لا يزال مصمما على رأيه في بادئ الأمر إلا انه بدأ يقتنع بما نقوله شيئا فشيئا، لكن مع تعهدنا بمجموع كبير يرضيه، أخبرنا غالية بما دار فتعهدت أن تبذل أقصى جهدها كي ترضي أباها.

لكن ما زاد الطين بلة أن أحد أقاربنا كانت ابنته في نفس المدرسة التي قدمت بها غالية، كان قريب من بعيد لا أتذكر انه قد زارنا يوما في المنزل أبدا، لكنه كان صديق مقرب من عمي رضوان، والذي علم بمحض الصدفة العجيبة بأن غالية تدرس هنا كي تحسن درجاتها في الثانوية العامة، فأخبر عمي الذي لم يتوانَ عن إخبار أبي بما عرفه مما زاد أبي حنقا على غالية وجفاء عليها.

ظل أبي لا يحدث غالية ولا ينظر إليها ولا يجالسها مجلسا أو طعاما، حتى

أمي كانت تنالها نوباته أحيانا لشكه أن لها يد لكن دون دليل منه على ذلك، اجتناب أبي لغالية كان وقعه أليما جدا عليها، لم تلقَ منه جفاء أبدا قبل ذلك، وهو الذي يدللها دائما كونها الابنة الوحيدة له، ومن بعدها مالك ذلك الساذج الصغير طفله المدلل حتى عندما وصل الرابعة عشر من عمره، أما أنا وكأنني ابن البطة السوداء. . . ما علينا لا يهم الآن، بالتأكيد عمي رضوان لم يفوت هذه الفرصة، انتهزها على أكمل وجه لإفراغ ما في جعبته من سموم وبثها في قلب أبي تجاهنا، فهو دوما كذلك خاصة تجاه أمي، لكنه رغم الفارق الكبير بيني وبينه إلا أنه كان يخشاني لأنه يعلم أني لا أترك له المجال ليفصح عما يريده تجاه أمي فأكيل له بما يكيل حتى ينتهي مغتاظا، نهرني أبي ووبخني بأنه لا يصح، أخبرتهم جميعا بأن غالية ستنجح وبدرجة تفوق تخيلهما، ظل يبرم لكي يجعل أبي يحرمها من دخول الامتحانات كعقابا لها، كي تعرف خطأ ما فعلته، ولولا وجودي لكان استجاب أبي لسمومه تلك، وقفت منهيا ذلك النقاش مستأذنا أبي أن غالية ستكمل ما بدأته حتى وإن كانت وقعت ف الخطأ فإنها لم تقصده على الإطلاق.

****

أتت الامتحانات سريعا، كان أبي يطمئن على حال غالية مني دون علمها، هي فتاته لكنه مجروح مما فعلته من وراء ظهره لكنها ستظل فتاته دوما. أمي لا تتوقف عن الدعاء أبدا، تدعو الله في كل صلاة أن يوفق غالية ولا يحرمها ما تريد ولا يشمّت فينا من يريد لنا الهلاك. . كانت غالية تجتاز الامتحانات الواحد تلو الآخر إلى أن جاء موعد النتيجة. . وكان ذهول الجميع.

غالية راضي عبد المجيد رضوان ٩٨٪